قراءة تفكيكية للخطاب السردي التاريخي في رواية رمل الماية فاجعة الليلة السابعة بعد الألف لواسيني الأعرج

Deconstructive reading in narrative historical discourse Ramal Almaya truma of the seventh night after the millennium for Wassini ElAiraj

ط. د/ بورقبة مريم

د قوراري سليمان

قسم اللغة والأدب العربي جامعة أدرار (الجزائر)

مخبر انتماء طالب الدكتوراه: مخبر المخطوطات الجزائرية في غرب إفريقيا

Bouregba.meryem@yahoo.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/29 تاريخ القبول: 2022/02/19 تاريخ النشر: 2022/03/15

ملخص

إنّ استدعاء التاريخ أضحى لازمة من لوازم الرواية العربية، بل أصبح من ضروريات الكتابة الروائية المعاصرة التي سعى مبدعوها إلى قراءة الحاضر بعيون الماضي، رغبة في استخلاص العبر . لذلك تفّنن الروائيون في توظيف التاريخ وراحوا يتسابقون لإدراجه ضمن نصوصهم السّردية بطرق كثيرة و تقنيات عديدة؛ بغية نيل ثقة القارئ الشغوف لقراءة التراث.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، رواية رمل الماية، واسيني الأعرج.

Summary:

Recalling history has become a necessity for the Arab novel. Rather, it has become a necessity for contemporary fictional writing, whose creators sought to read the present with the eyes of the past with a desire to draw lessons. Therefore, novelists have mastered the use of history and have been competing to include it in their narrative texts in many ways and in many techniques, so as to gain the confidence of the passionate reader and make them eager to read the heritage.

Key words:

History, the novel ‘Sand of the Maya’, wasini al'aeraj

- المتن

1- إدخال النص التاريخي في الرواية:

تفنّن المبدعون في إدراج النّصوص التاريخية في العمل الأدبي، و قد أوردوا النّص التاريخي بمعزل عن النّص السّردي حتى أبقوه خارج السّياق النّصي، و أحيانا جعلوه داخله بتحديده بين قوسين، أو تفاعله ضمنيا مع النّصوص السّردية.

أ- خارج السياق النصي

عرف بعض الروائيين إدراجهم لنصوص تاريخية في مدخل رواياتهم بغية نيل ثقة القارئ بحيث تكون زبدة القول إن صحّ التعبير ، أو كنص هامشي يحمل دلالات توحي بالبنية الداخلية للنص الروائي، فيعطي تصورًا وانطباعًا عنها، و تكون هذه النصوص مقتطفة من كتب التاريخ أو حتى من أقوال بعض الشعراء والفلاسفة والمؤرّخين، ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر:

الروائي "واسيني الأعرج" في روايته "البيت الأندلسي" من خلال مقدّمة الرواية يتماهى النص التاريخي ويتزاوج مع الحاضر بغية معرفة المستقبل، فتتعدّد الرؤى السّردية بين راويين رئيسيين يشدان حبل الحياة، فالطرف الأول يمثل التاريخ، أما الطرف الثاني فيمثل الحاضر.

فالطّرف الأوّل يمثّل الماضي وراويه "غاليليو الروخو " (أحمد بن خليل)، وهو رجل موريسكي[1]، هاجر من أرضه الأولى الأندلس ليستقرّ في الجزائر، و هناك بنى بيته على شاكلة البيوت الأندلسية، وبما أنه يمثل أحد الشخصيات الرّئيسة في الرواية، بل محور الحديث كله، فقد استشهد بقوله في مقدّمة "البيت الأندلسي " فبدأ مقدمته بسطر دال: " إنّ البيوت الخالية تموت يتيمة " ودرج أسفل القول اسم صاحب البيت " غاليليو الروخو " (أحمد بن خليل) .

أمّا الحاضر فيورده أسفل السّطر السّابق من قول "غاليليو الروخو " وهو بيت الشاعر أبو البقاء الرّندي[2]:

وهذه الدّارُ لا تُبْقي عَلَى أَحَدٍ و لا يَدُومُ عَلَى حالٍ لها شَانُ[3]

فالبيت هذا حكمة للحاضر و المستقبل، نستخلص منه أن الحياة الدّنيا فانية لا محالة، و أنّ الإنسان ميّت، و ماله زائل، وشبابه ينقضي في الجري وراء ملذّاتها، أمّا شيخوخته فتنقضي في الحسرة والندامة.

و يظهر توظيف التاريخ هنا من خلال الاستشهاد بنصين: أحدهما نص حكمة مقتبسة من خبرات الحياة وهو نص من « مخطوطة كانت بيد مراد باسطا ...التي تعود إلى جده سيدي أحمد ... وهو الذي رعاها وحافظ عليها من الضياع إلى آخر لحظة في حياته: (حافظوا على هذا البيت، فهو من لحمي و دمي .ابقوا فيه و لا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدما فيه أو عبيدا .. أن البيوت الخالية تموت يتيمة)، وهذه المخطوطة تحكي تاريخ العرب في الأندلسي و ما تعرضوا له من انتهاكات قمعية وعنصرية نفذتها محاكم التفتيش[4]»[5] البابوية ضد جماعات -المهرطقين -كانت قد ضاقت ذرعا بالوضع الكائن آنذاك.

والآخر نص شعري لأشهر شعراء الأندلس الرطيب، وكليهما يحمل دلالة؛ فالأول يوحي على أن الديار الخالية من السكان تبقى مثلها مثل اليتيم الذي مات أبوه قبل بلوغه، فكليهما عاش ويلات الحرمان و الهجران، و ذاق مرارة الوحدة و النسيان، أمّا الثاني فيقرّ حقيقة الدار الدنيا لأنّ دوام الحال من المحال، فما آل إليه البيت الأندلسي جدير بالحكي نظرا للتحولات الطارئة التي شهدها هذا البيت عبر الفترات التاريخية للجزائر .

ب – داخل السياق النصي:

- **ورود النص التاريخي بمعزل عن النص السردي :**

ويتراءى لنا ذلك في رواية " رمل الماية " فاجعة الليلة السابعة بعد الألف " ، حيث أورد الروائي نصوصا تاريخية من كتب التاريخ ووضعها بين قوسين للإحالة على الكلام المنقول ، حيث يفصح " واسيني الأعرج" على أحد مصادر مادّته التاريخية المتمثلة في كتاب " نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب " للمقري التلمساني في قوله:

«سأتذكر فيما بعد كلامًا قرأته لصاحب نفح الطيب "المقري" حين كانت أول وآخر مدينة دخلتها بعد مأساة الكهف تحترق مثل لعبة كبيرة صنعت من التبن، " تسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان و فاس ونجا منهم القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا في ضواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها وكذلك بتطوان وسلا، ومتيجة الجزائر»[6] وكما هو ملاحظ فإن المقطع المقتبس موضوع بين مزدوجين و من خلال سياقه يظهر مصدر الاقتباس وهو من قول المقرّي:

« فتسلّط عليهم الأعراب ومَنْ لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان و فاس، ونجا القليلُ من هذه المعرّة، و أما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر»[7]، ويعد هذا الاقتباس توظيفًا للتاريخ من خلال ذكر مصادره الأصلية الموثوقة من جهة، و إرشاد القارئ إلى هذه المصادر النفيسة الزّاخرة بالحقائق التاريخية من جهة أخرى، والتي تعدّ في الوقت ذاته المصادر المعتمدة في كتابة الرواية ذاتها .

- **تداخل النص التاريخي مع النص الروائي:**

وهنا يتمازج التاريخ مع النص السردي، ويتفاعل معه في السياق الكلامي، حيث لا يشير الروائي للأحداث التاريخية الفعلية و أحداث الرواية المفتعلة، بل يمزج حديثه ضمن السّرد الروائي، فيستخدم ثقافته و معارفه السابقة و يقحمها في المتخيل السردي،

فتتفاعل " رمل الماية فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف " مع حادثة سقوط الأندلس و تسليم غرناطة، وتتفاعل مع التاريخ في قوله: « قالوا بأنّي أكثر من ذلك كلّه. ساحر و داعية كذّاب، باع غرناطة، آخر معاقل الدولة الإسلامية لجحافل الأصبان و قبض ثمنها دوقات ذهبية وفضيّة للممالك الشّمالية .قلت يا سيّدي هذه الصّورة هي الشّكل المعكوس للحقيقة .محمّد الصغير، ورأسك محمّد الصغير...»[8]

يشير المقطع إلى تواطؤ " محمّد الصغير" آخر ملوك غرناطة، مع الإسبان المسيحيين في حادثة سقوط غرناطة مقابل دراهم معدودات، كما تشير الرواية، ويرجع المؤرّخون سبب هذا السقوط إلى عوامل كثيرة كان أبرزها « خضوع أبي عبد الله لفرديناند وبقائه في قبضته ... وحينما وصل إلى قرطبة، استقبله الملكان الكاثوليكيان أحسن استقبال، ومازالا يأخذانه بضروب الإغراء الخبيثة، ويشرحان له سوء أمره، ويُظهران له قوة بطشهما وعظمة ملكهما، حتى ذل عنقه وأصبح آلة في أيديهما، وخادما لهما أمينا»[9]، لقد أصبحت الأندلس لقمة سائغة لكل من سوّلت له نفسه القضاء على العروبة و الإسلام في شبه جزيرة إيبيريا، وبدأت المدن الأندلسية تتساقط الواحدة بعد الأخرى، فتواطؤ الحكام والملوك مع الإسبان كان نتيجة للتخاذل و الخيانة، و محاربة بعضهم البعض، وتفرق شيعهم و آرائهم، وفي المقابل نجد توحد العرش الإسباني و توافق إيزابيلا و فرديناند من أجل الإيقاع بالمسلمين. « لم يبق في أيدي المسلمين سوى " غرناطة "، التي كان يحكمها " بنو الأحمر " ، لمنعتها و كثرة أهلها، ثم إنّ الخلاف قد دبّ بين " أبي عبد الله بن أبي

الحسن " و بين عمّه " الزّغل "، ممّا أدى إلى تغلّب الإسبان أيضًا على " غرناطة "، وانتهاء أمر المسلمين في الأندلس »[10] مما نتج عنه سقوط آخر معقل للمسلمين فيها في «الخامس و العشرين من شهر نوفمبر 1491م / 897هـ »[11] وهو تاريخ توقيع شروط التسليم.

فيتماهى النص التاريخي مع النص الروائي على لسان " البشير الموريسكي " الذي ردّ التّهم الموجّهة إليه ونسبها لمحمّد الصغير، وهو يقسم برأسه، وبذلك يصبح فعل السّرد التاريخي متداخلا مع ما قصّه " البشير الموريسكي " السارد للحقيقة والشاهد على أحداث التاريخ .

2- **تحويل السرد التاريخي إلى سرد روائي :**

يمثل السّرد التاريخي حكي الأحداث التاريخية في الزّمن الماضي البعيد أو القريب، ثم إعادة صياغته في قالب روائي، و أثناء هذا التّحوّل لابدّ من التمعّن في حركة الزمن الماضي، والتغيرات الطارئة على هذا السّرد، ولا يتأتّى ذلك إلاّ من خلال معرفة الخصائص أو المؤشرات التي يتشكّل منها السّرد التاريخي، ويمكن تلخيصها فيما يلي :

1- « غلبة الأفعال الماضية الدالة على الحكي و سرد الأحداث .

2- كثرة الجمل الإخبارية .

3- التأطير الزّماني و المكاني للأحداث .

4- حضور دلائل الزّمان و المكان .

5- توافر البنية السّردية القائمة على البداية و التّحوّل و النهاية. »[12]

ومن خلال الوقوف على فعل السّرد في " رمل الماية فاجعة الليلة السابعة بعد الألف " نلاحظ خصوصيات السّرد الروائي باللجوء إلى إظهار تفاصيل العملية السردية، و على سبيل المثال هذا المقطع الروائي من " رمل الماية الليلة السابعة بعد الألف " و الذي نحاول من خلاله

إبراز عنصر الزمن بين السرد التاريخي والسّرد الروائي: « فترة النوم التي قضيتها داخل الكهف تبدأ في الظاهر منذ الفترة الصباحية عندما قادني إلى هذا المكان جماعة الملثمين السبعة الذين انسحبوا بسرعة بعد أن أكدوا لي على ضرورة الارتياح و النوم. حين تقوم ستجد من ينتظرك. أصابتني بعدها الإغفاءة اللذيذة، التي لا تقاوم. المؤكد أني عندما دخلت إلى الكهف كان اليوم يوم جمعه و السنة 1687(؟؟؟) .. غادرت غرناطة مجبراً »[13]

نلاحظ بوضوح من خلال هذا المقطع الذي اجتزأناه الطابع الخاص، و المتميز الذي ينطبع به الخطاب السردي التاريخي الكلاسيكي. يظهر لنا هذا الطابع من خلال الجدول التالي الذي يبين مؤشّرات السّرد :

المؤشر	المثال
غلبة الأفعال الماضية الدالة على الحكي و سرد الأحداث	قضيتها – تبدأ (فعل مضارع يدل على الزمن الماضي لأنه مسبوق بفعل ماض) – قادني – انسحبوا – أكدوا – أصابتني – دخلت – كان – غادرت.
كثرة الجمل الإخبارية	- فترة النوم التي قضيتها داخل الكهف تبدأ في الظاهر منذ الفترة الصباحية . - انسحبوا بسرعة بعد أن أكدوا لي على ضرورة الارتياح و النوم - حين تقوم ستجد من ينتظرك . - أصابتني بعدها الإغفاءة اللذيذة. - المؤكد أني عندما دخلت إلى الكهف كان

	اليوم يوم جمعه و السنه 1687.
التأطير الزّماني والمكاني للأحداث	داخل الكهف/ يوم جمعه و السنه 1687
حضور دلائل الزّمان و المكان	فترة النوم / الفترة الصباحية
توافر البنية السّردية القائمة على البداية و التّحوّل و النهاية	تبدأ في الظاهر منذ الفترة الصباحية/..غادرت غرناطة مجبراً

كما يمكننا إضافة بعض عناصر السّرد الأخرى التي يتمايز بها الخطاب التاريخي:

أ- **ضعف اتساق النص و انسجامه :**

فمن خلال بنية النص الروائي " رمل الماية فاجعة الليلة السابعة بعد الألف " قلة الروابط و القرائن اللغوية « في الانتقال من مؤشر زمني إلى آخر لا نجد الترابط بين الأحداث إلا عامًا جدًا ، لأن ما يهم المؤرخ التقليدي هو تسجيل الحدث الأساسي و لا يبدو الربط إلا من خلال عناصر تكرارية للحدث ذاته أو لاستمراره. وغالبا ما يأتي ذلك على شكل إرجاعات. والخطاب التاريخي التقليدي يطفح بهذه الاسترجاعات[14] الداخلية في أغلبها»[15] ، ومن هذه الاسترجاعات نختار على سبيل المثال دخول "البشير الموريسكي" إلى الكهف ، هذا الحدث الدرامي المتكرّر عبر صفحات الرواية :

الحدث	ما يقابله في الرواية
دخول البشير الموريسكي إلى الكهف	« هو أنّك حين استيقظت وجدت نفسك للمرة الأولى تواجه خوفاً من نوع جديد. مسجونَا كنت داخل كهف مغلق مثل أيام القيامة . تساءلت بدهشة الخائفين ، هل هي الشمس الحارقة التي قادتك إلى هذا المكان أم الموجة الهاربة التي تآكلت على رمال الشط بهدوء »[16]
	« المؤكد أني عندما دخلت إلى الكهف كان اليوم يوم جمعه و السنه 1687(؟؟؟) .. غادرت غرناطة مجبرًا »[17]
	« تقول أنك قادم من الأندلس ، و أنك كنت تعيش في غرناطة قبل ثلاثة قرون. ابتسم البشير . نعم ، لقد غادرتها سنة 1687 . أنا لا أضيع التواريخ يا سيدي ...كنت في كهف ، إني متأكد يا سيدي »[18]

ب- <u>الانتقال من الزمن الماضي إلى الزمن الماضي المستمر أو الحاضر في السرد الروائي :</u>

فيثبت الزمن من خلال الفعل ودلالته الزمنية، و تتميز الأحداث التاريخية بطغيان الأفعال الماضية الثابتة التي تدل على الاستقرار و الجمود، فالرواية التاريخية تعتمد على حكي أحداث وقعت في الماضي، لكن قد يستمر الزمن الماضي الدال على القيام بالفعل في الماضي، إلى الزمن الحاضر من خلال العمل الروائي، فاعتماد الأحداث الماضية يسمح باستخلاص العبر

والدروس التي يمكن إسقاطها على الواقع، وبهذا يمكننا الحكم على الماضي انطلاقا من الحاضر المعاش ، وفق التعالقات النصيّة بين الزّمن الماضي و الحاضر.

« لكنّ التميز القائم على المسافة الزّمنية – بين زمان الحدث التاريخي المقدم في الرواية و زمان كتابتها مهم – قد يمتد ليتسع إلى الماضي البعيد و المقيس بالقرون الغابرة . كما أنها يمكن أن تضيق لتشمل الزمان القريب و الممتد في الحاضر و الذي يمكن قياسه بسنوات محدودة »[19] ، وفصل القول يكمن في فترة امتداد الزمان نفسه فكلّما بعدت صنفت ضمن التاريخ و كلّما قربت وقع التّردد في تصنيفها.

ففي " رمل الماية فاجعة الليلة السابعة بعد الألف" يعيد التاريخ نفسه، ويتفاعل الماضي مع الحاضر ويتمازج معه، فيفضح المؤامرات المزيّفة، و الأقاويل المفبركة التي رسمها الورّاقون المتملّقون للسّلطان، فما حدث " للبشير الموريسكي " إلا نموذج للاضطهاد الذي عاشه الأندلسيون في ظل الاحتلال أو المورسكيون فيما بعد، فلم يسلم " البشير الموريسكي " هو كذلك من أذى الصليبيين و لا حتى من أتباعهم من أشباه الأندلسيين الخونة الذين باعوا الأندلس، فعذّبوه واتّهموه بالجوسسة لصالح الإسبان « واجهوني بتهمة الجوسسة لصالح السفن الإصبانية التي ترابض على السّواحل الوطنية. قادوني بين كل المحاكم المرخص لها بمحاكمة المجرمين الذين خانوا الوطن و الملح و الأحباب. شتموني، بصقوا على وجهي، ضربوني حتى قيؤوني الدم »[20] .

فبين الزمن الروائي و الزمن الواقعي يتجلى لنا واقع الظلمة و الانحراف، الذي راح ضحيّته الكثير من المظلومين الذين وقفوا ضد الفساد و قهر السلطة، فما كان على تلك الجهات المعنية سوى التصدي لهؤلاء و وتلفق التهم الباطلة؛ رغبة في إبعادهم عن طريقهم أو زحزحتهم على الأقل بعيدًا عن مصالحهم الشخصية، بكل السبل الشنيعة و أشكال التعذيب والانحطاط

ج- الخطاب التاريخي خطاب حكائي :

فالمؤرّخ يستدل الصبغة الحكائية من خلال استخدام عبارات الحكي الدالة على البداية والنهاية، كما هو الحال في قصص الأطفال "كان يا مكان في قديم الزمان" ، فعلى سبيل المثال قوله : « أحبك يا البشير وسأحكي كثيرًا عن حلمك في الأسواق »[21] هنا إشارة لفعل الحكي من خلال الفعل "سأحكي" « وهنا تبدأ الحقيقة التي عشت تفاصيلها بكل بوعي »[22] أي بداية القصة الفعلية المتعلقة بزمن القصة لا بزمن السرد، « اتضح لي في نهاية المطاف أن ما رأيته في الكهف، عن الحاكم الرابع ...»[23] وهو حديث عن نهاية قصة " الموريسكي " داخل الكهف وحيثياتها المتعلقة بالحاكم الرابع و هو زمن القصة الفعلي .

د- تكسّر التسلسل الزّمني " الانتقال من زمن القصّة إلى زمن السّرد ":

يشكّل النّص التاريخي حقيقة تاريخية لا يمكن التّلاعب بها أو تزييف كينونتها، كما لا يمكن التقديم و التأخير بين الأحداث التاريخية، كونها خاضعة للتسلسل المنطقي و الذي يتوافق مع التأريخ الزّمني، لكنّ السّرد الروائي يجمع كل المتناقضات، فجاز للروائي أن يتلاعب بالزّمن وفق مجريات العمل الروائي، حتى أضحى من الصعوبة التفريق بين خصائص زمن القصة الواقعي و خصائص زمن السّرد الروائي؛ لأن «زمن القصة يخضع بالضرورة للتتابع المنطقي للأحداث، بينما لا يتقيّد زمن السّرد بهذا التّتابع المنطقي. »[24]

ولنجري مقارنة بينهما كما هو موضح في الجدول التالي :

زمن القصة الواقعي	زمن السرد الروائي
الخضوع للتسلسل الزمني للأحداث	لا يشترط تسلسلا زمنيا
الخضوع للتسلسل المنطقي	الخضوع لمنطق السّرد الروائي

تحقق الوحدة العضوية	غياب الوحدة العضوية و إمكانية التقديم و التأخير بين الوحدات النصيّة
يرتبط بزمن المادة الحكائية و له بداية ونهاية	يرتبط بزمن القراءة
زمن القصة صرفي	الزمن النّصي أو الروائي دلالي يتجسد فيه الترابط والتكامل بين زمن القصة وزمن الخطاب.

وبالمثال يتضّح المقال فيظهر التلاعب بزمن القصة مرورا بزمن السّرد أثناء تقديم سيرة " الحلاج " في رواية " رمل الماية، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف " نحو الشكل التالي :

« 1- اتهام السلطة للحلّاج بالكفر و الإلحاد و المروق على الدين

ب- القبض عليه، وهو في مدينة (سوس)

ت- محاكمته وتوجيه الاتهامات ضده.

ث- الحكم عليه بالصلب وإحراق جثته

ج- إحراق جثته و ذر رمادها في نهر دجلة »[25]

فالقبض على الحلاج حدث متأخرًا في السرد الروائي، عما هو عليه في السرد التاريخي؛ أي أنّه قبض عليه أولا ثم وجهت له الاتهامات المتنازع فيها، « إنّ عنصر الزمان مكون أساس لتحديد " نوعية السّرد " .ولما كان السرد (من خلال الخطاب) يتقدّم إلينا عادة بعد وقوع الفعل (الحدث) الذي يسرده، كانت الأفعال المسرودة جميعها داخلة في الماضي (زمان القصة) المختلف عن حاضر النّص الروائي الذي يتحقّق من جهة في زمان الخطاب ومن جهة ثانية في زمان النّص (زمان الكتابة والقراءة)»[26]

هـ- التنويع في الضمائر:

لا شكّ أن كل رواية يتفنّن صاحبها في استعمال الضمائر المختلفة وفق ما تقتضيه الضرورة السردية، فيوظّف ما أمكنه من الضمائر خاصة في تقديمه للشخصيات الروائية بواسطة الرّاوي باستخدام ضمير الغائب، أو بواسطة الشخصيات باستخدام ضمير المخاطب أو بواسطة الشخصية التاريخية نفسها.

فالمؤرّخ هو الذي يسجّل الحدث وينقله، فهيمن على نصّه التاريخي ضمير الغائب، ولا ينوّع في استخدام باقي الضمائر كما يحدث في أيّ خطاب روائي، حتى و إن كان الرّاوي فيه عارفا بكل شيء[27]، ذلك لأنه من سمات البحث التاريخي تقصي الحقائق و سرد الأحداث التاريخية كما حدثت في الحقيقة، ولا يتأتّى ذلك إلّا بصياغة الكلام وفق ضمير الغائب الملائم لهذا الغرض.

3- توظيف أحداث التاريخ:

إنّ استدعاء التاريخ أضحى لازمة من لوازم الرواية العربية، بل أصبح من ضروريات الكتابة الروائية المعاصرة التي سعى مبدعوها إلى قراءة الحاضر بعيون الماضي، رغبة في استخلاص العبر، و لا يخفى أنّ تاريخ الأمّة العربية قد مرّ بلحظات الانكسار و الضعف، ولحظات للقوة و الازدهار ؛ لذا يمكن تقسيم هذه الأحداث أولا إلى « أحداث السقوط، حيث يعمّ الظلم و الاستغلال، وتنتشر الفتن على المستوى الداخلي، ويتعرض المجتمع إلى هجمات الأعداء والهزائم على المستوى الخارجي،. أما ثانيهما فهو أحداث النهوض، حيث يعم العدل والمساواة بين أفراد المجتمع، ويحقق الشعب النصر على الأعداء »[28]؛ أي أنّ فترة الضعف و ما صاحبها من سقوط للدول العربية الإسلامية كالدولة العبّاسية والدولة الأندلسية، رغم تطوّرهما وازدهارهما في شتّى

المجالات، لكنّ انتشار الفتن، و طمع وجشع الحكّام جعل من هذه الدوّل فريسة سهلة أمام العدوّ الصليبي الذي قسّم البلاد العربيّة وشتّت أفرادها، ونهب ثرواتها و استغلّ خيراتها .

أما فترة القوّة فهي ما أعقبت سقوط العرب، فكانت فترة للنهضة العربيّة، شهدت ثورات التّحرير الكبرى، واستقلال البلدان العربية، حيث حارب العرب عدوّهم واسترجعوا أراضيهم المغتصبة، وقاموا بتشييد مدنهم مرة أخرى بعد غزوها و استدمارها.

ويرى " قسطنطين زريق " أنّ « التآريخ تاريخان: التّاريخ العبء، و التاريخ الحافز .فثمة تاريخ يثقل كاهل صاحبه – فردًا كان أو أمة – ويشل حيويته، ويضعف همّته، و يجعل إنتاجه هزيلا سقيما. و ثمة تاريخ آخر يحفّز وينشط ويبعث، ويدفع إلى الإبداع و التقدّم »[29] . فتاريخ الأمّة العربية حثيث بالأحداث التي تحتاج إلى إمعان النّظر أو بالأحرى إلى مثقّف واعٍ ثاقب النظر، واسع الفكر و العلم يتمتّع بحيادية النقد، يبسط معارفه و خبراته السابقة حتى يسقطها على نتاج تاريخ الأمة العربية.

ولأجل ذلك لا بدّ من نقد التاريخ وتمحيصه دون تمجيده، وغربلته حتى نميّز بين العامل المحفز و العامل العبء . بين النافع و الضّار. خاصّة ما إن كان التاريخ حافلا بالانجازات ،و تشوبه كثير من الأحساء و الأوساخ .

فتاريخ الأمّة العربيّة عظيم بعظمة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، فكان عصر صدر الإسلام و ما صاحبه من فتوحات إسلامية. قد أظهر قوّة العرب وبيّن حدّة بديهتهم في كل المجالات الدينية و السياسية والاجتماعية والاقتصادية « فلكم من تاريخ جليل حافل كان لأهله عامل استكانة وتأخر، وكم من تاريخ هزيل مظلم كان لأبنائه مثار نقمة ومبدأ انطلاق لأعمال باهرة مجيدة»[30]، وعليه فيكون الأثر الذي يحدثه التاريخ في أنفسنا متوقفًا على درجة استيعابنا لأحداثه

التاريخية و وقائعه الماضية، و مدى انعكاس كلّ ذلك على نفسيتنا، فيكون الأثر إيجابيًا أو سلبيًا، أو بين هذا وذاك فمعروف أنّ الأمم على اختلاف أجناسها و أديانها و لغاتها... تجمع في تاريخها بين الخير و الشر . وبين الجيّد والرديء. وبين النافع و الضّار .. .، و من ذلك كلّه انصهرت العوامل أجمعها لتكوّن تاريخ الأمّم الغابرة في الزمن.

لذا يترتّب علينا النّظر إلى تاريخنا نظرة إيجابية بنّاءة كي تولّد لدينا تفاؤلًا كبيرًا للمضي قدمًا، دون أن نغفل نقاط القوة و الضعف في هذا التاريخ، كما وجب علينا أيضًا أن نعمّق دراستنا سعيًا إلى مستقبل واعد للنهوض بالأمة العربية، فنفتح آمالا جديدة تنسينا عبء التاريخ، وذلك بالوقوف على أسباب هوان أمّتنا وانكسارها، و نشق حجب الظّلام الذي يعمّها، فلا نقع في ما وقع فيه أجدادنا من غلط، و أن لا نكّرر مشاهد الذل و الخذلان.

توظيف أحداث السقوط في رواية رمل الماية:

تبدأ أحداث السقوط في التاريخ العربي حسب "واسيني الأعرج " من خلال روايته " رمل الماية فاجعة الليلة السابعة بعد الألف " منذ عهد الخليفة " عثمان بن عفّان " رضي الله عنه، وتنتهي إلى غاية العصر الحديث .

حيث تعرض لنا الرواية بطولة " أبا ذر الغفاري "[31] و صراعه مع أثرياء عصره، وموقف " ابن رشد " الصّامد الذي اضطهد من أجل اشتغاله بالفلسفة، حيث عالج الروائي خلال سرد قصّته؛ قضيّة التّصوف والحكم الاستبدادي عبر التّاريخ الإسلامي =، ودعا من خلالها إلى ضرورة مكافحة الفساد السيّاسي وسوء تّسيير السّلطة واستخدام النّفوذ، ومناصرة الحق و تحرير الفكر العربي .

وفي هذا الصّدد يصوّر الرّوائي الأوضاع السياسية للعصر العبّاسي وصراع الخلفاء على السلطة، وتعلّقهم الشّديد بالدّنيا و هوسهم بجمع المال، الذي سعوا إليه بكلّ ما أوتي من قوّة وسلطان، بعدما تنكّروا لدمهم و أقربائهم مقابل البقاء في الحكم. « كانوا يبيعون البلاد للأتراك و الفرس . قالوا: خذوا البلاد و أعطونا الذّهب والكرسي و الغلمان، ولا تخلعوا عنّا الحكم. لكنّهم في لحظة الهوس بدؤوا يأكلون رؤوسهم الواحد تلو الآخر. المعتصم، المتوكّل، المنصور قتل أباه و اعتلى خلاعة الكرسي، و انتهى مسموما، المستعين ...المهدي ، المعتمد. الموفّق، المعتضد ...»[32] وهكذا باعوا البلاد للغرباء، فزرع العدو الفتن بين الأمراء والخلفاء وحاشيتهم حتى أضحوا يتقاتلون فيما بينهم، فاستعانت الدولة العبّاسية بالفرق الأجنبية خاصّة الفرس و الترك، ما جعلها تتعرّض للمؤامرات بهدف القضاء على كينونتها.

فاستوطن الشك وسوء الظن عقول الخلفاء و حاشيتهم، و أضف إلى ذلك جبروتهم وتعلّقهم الوضيع بالجاه و المال و المناصب العليا، على حساب غيرهم، حتى أرغمتهم نفوسهم الجشعة على قتل كل من سوّلت له نفسه إبعادهم عن مرادهم، أو من أراد مجاراتهم في الحكم فسفكوا دماء بعضهم البعض وأفسدوا في البلاد حتى باعوها بثمن بخس للأتراك والفرس.

عرض الرّوائي انتكاسة العرب اليوم وأعاد تاريخ الخلاف العبّاسية، و أبرز مدى تلاعب الحكّام بالرعيّة وانغماسهم في شهوات الحياة الدنيا والهوس من أجل الفاني، ومن أجل الاستيلاء على كرسي الخلافة وخدمة مصالحهم الشّخصيّة، وتمسّكهم بالحكم مقابل الذّهب، حتى نهشوا لحم بعضهم البعض، وسفكوا دم الواحد تلو الآخر، وقتلوا آباءهم و أولادهم وإخوانهم و أولي الأمر منهم.

فما أحوجنا اليوم لخلافة إسلامية تعيد كرامة المسلمين، وما أحوجنا لأخذ العبر من تاريخ بني العبّاس، لأنه حاضر المسلمين اليوم، حتى نتمكّن من ربط الماضي بالحاضر، وإسقاطه على واقع اليوم، فالتاريخ يعيد نفسه و ما أشبه الليلة بالبارحة حين نكبت بغداد على يد المغول، وما يحصل اليوم في العراق و في أنحاء الدول العربية تحت وطأة الدوّل الكبرى بزعامة الولايات المتحدّة الأمريكية و تواطؤ العرب أيضا كتواطؤ الحكام في سقوط بغداد

[1]- الموريسكيون: « المسلمون الذين لم يهجروا البلاد بعد سقوط غرناطة ، وكان لهم لهجة رومانسية (محرّفة عن اللّتينية) و استخدموا الحروف العربية لكتابتها فيما عرف باسم الجميادو » أنور محمود زناتي: معجم مصطلحات التاريخ و الحضارة الإسلامية ، دار زهران ،ط1 ، عمّان ، 2010 ، ص 388

[2]- الرُّندي(601- 684 = 1204 -1285) : « صالح بن يزيد (أبي الحسن) بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف ، أبو الطيب و أبو البقاء النفزي الرّندي : شاعر أندلسي . من القضاة له علم بالحساب و الفرائض . من قبيلة نفزة البربرية . من أهل رندة ...له تآليف أدبية وقصائد زهدية و « مقامات » في أغراض شتى وكلامه نظماً و نثراً مدوّن.» خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج3 ، دار العلم للملايين ، ط15، بيروت ، مايو 2002، ص198.

[3] - حامد كمال عبد الله حسن العربي : معجم أجمل ما كتب شعراء العربية، دار المعالي ، ط1 ،عمان ، 1422ه/2002م ، ص 404.

[4]- محاكم التفتيش « جهاز ضخم يشمل العالم المسيحي الغربي بأسره ، نشأ بتأييد وتجنيد من البابوات و الملوك ، صادف تاريخه من آن لآخر بعض الاعتراضات ، شهد حالات كثيرة من المقاومة الشعبية و لكنّ الكنيسة الكاثوليكية قمعتها قبل أن يستفحل ، فكان الوقوف في وجه المحقّقين في محاكم التفتيش يتطلّب شجاعة حيث أنه يتعرّض للطّرد من الكنيسة و بعد مرور عام من الطّرد يصبح مهرطقاً -الهرطقة كلمة يونانية الأصل و معناها الرّأي المستقل أو الاجتهاد الفردي – من الناحية القانونية الأمر الذي أجاز حرقه دون محاكمة » رمسيس عوض : محاكم التفتيش ، دار الهلال، دط ، 2001، ص 33، 32.

[5]- محمد سلام جميعا : تلويحات نقدية في رواية البيت الأندلسي لواسيني الأعرج ، وكالة عمون الاخبارية ، تاريخ الاضافة 2013/02/17 زيارة يوم 2017/01/13 على الساعة 21:30، الموقع الإلكتروني www.ammonnews.net .

[6] - واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة الّليلة السابعة بعد الألف ، دار كنعان للدراسات والنشر ، ط1 ، دمشق ، 1993،ص 41

[7] - أحمد بن محمّد المقرّي التلمساني : نفح الطيب من غصن الاندلس الرّطيب ، تح إحسان عبّاس ، ج4 ، دار صادر ، بيروت ، 1388ه/1968م، 528 .

[8] - المصدر السابق (واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة الّليلة السابعة بعد الألف)، ص 40.

[9]- ستانلي لين بول : فصة العرب في إسبانيا ، تر: علي الجارم بك ، كلمات عربية للترجمة و النشر ، القاهرة ، 2012، ص 146.

[10]- محمد علي قطب : مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس ، فرغ منه 9 جمادى الثانية 1406هـ /28 فبراير1985م ، ص31.

[11]- المرجع نفسه ستانلي لين بول : فصة العرب في إسبانيا ، ص 154.

[12] - بومعزة غشام و آخرون : دليل مخطّط التدرج في التعلمات ، طبع من طرف وزارة التربية الوطنية ، 2016/ 2017 ، ص 27.

[13] - المصدر السابق (واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف)، ص38

[14]- الاسترجاع : «مخالفة لسير السّرد تقوم على عودة الراوي إلى حدث سابق ، وهو عكس الاستباق ، و هذه المخالفة لخط الزمن تولّد داخل الرواية نوعا من الحكاية الثانوية ...أما وظيفته فهي غالبا تفسيرية : تسليط الضوء على مافات أو غمض من حياة الشخصية في الماضي ، أو ماوقع لها خلال غيابها عن السّرد " لطيف زيتوني : معجم مصطلحات نقد الرواية ، مكتبة لبنان ناشرون – دار النهار للنشر ، ط، 1 لبنان ،، 2002، ص 18

[15] - سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط3 ،بيروت ، 1997 ، ص 144

[16]- المصدر السابق (واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف)، ص 9، 10.

[17] - المصدر نفسه (واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف)ص38

[18] - المصدر نفسه (واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف) ، 304

[19]- سعيد يقطين : قضايا الرواية العربية الجديدة ، مطابع الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ط1 ، 2012/1433، ص160

[20] - المصدر السابق (واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف)، ص30

[21] - المصدر نفسه (واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف) ، ص 39

[22] - المصدر نفسه (واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف) ، ص 39

[23] - المصدر نفسه (واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف)، ص 41

[24]- حميد لحمداني : بنية النص السّردي ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، للطباعة والنشر و التوزيع ، بيروت ،1991، ص73

[25]- محمد رياض وتار : توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة ،اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002، ص1.9

[26]- المرجع السابق :(سعيد يقطين : قضايا الرواية العربية الجديدة) ، ص 161.

[27]- المرجع السابق :(سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي) ، ص 264

[28]- المرجع السابق :محمد رياض وتار : توظيف التراث في الرواية العربية ، ص 110

[29] - قسطنطين زريق : نحن والتاريخ ، ، دار العلم للملايين، ط6 بيروت ، يناير 1985 ، ص 208.

[30]- المرجع نفسه :ص نفسها ومابعدها.

[31] - « أبو ذر اسمه جُندُب بن جنادة بن سفيان بن عُبيد بن الوقيعة بن حَرام بن غِفار بن مَلْيل ، أمه رملة بنت الوقيعة من بني غِفار بن مَلْيل ، ويقال جُندُب بن جُنادة بن قيس بن عمرو بن مَليل صُعَير بن حرام بن غِفار، مات

بالرَبَذَة سنة اثنتين و ثلاثين ، وصلى عليه عبد الله بن مسعود» خليفة بن الخياط: كتاب الطبقات ، رواية .أبي عُمران موسى بن زكريا التستري ، تح أكرم ضياء العمري ، ط1 ، مطبعة العانى ، بغداد ، 1967/1387م ، ص31، 32.

[32]- المصدر السابق :(واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة الليلة السابعة بعد الألف)، ص130

- قائمة المصادر والمراجع:
- المصادر:

1. واسيني الأعرج : رمل الماية فاجعة الّليلة السابعة بعد الألف ، دار كنعان للدراسات والنشر ، ط1 ، دمشق ، 1993

- المراجع:

1. أحمد بن محمّد المقرّي التلمساني : نفح الطيب من غصن الاندلس الرّطيب ، تح إحسان عبّاس ، ج4 ، دار صادر ، بيروت ، 1388ه/1968م
2. أنور محمود زناتي : معجم مصطلحات التاريخ و الحضارة الإسلامية ، دار زهران ،ط1 ، عمّان ، 2010
3. بومعزة غشام و آخرون : دليل مخطّط التدرج في التعلمات ، طبع من طرف وزارة التربية الوطنية ، 2016/ 2017
4. حامد كمال عبد الله حسن العربي : معجم أجمل ما كتب شعراء العربية، دار المعالي ، ط1 ،عمان ، 1422ه/2002م
5. حميد لحمداني : بنية النص السّردي ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، للطباعة والنشر و التوزيع ، بيروت ، 1991.
6. لطيف زيتوني : معجم مصطلحات نقد الرواية ، مكتبة لبنان ناشرون – دار النهار للنشر ، ط1 ، لبنان ،، 2002
7. محمد علي قطب : مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس ، فرغ منه 9 جمادى الثانية 1406ه /28 فبراير1985م
8. محمد رياض وتار : توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة ،اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002
9. سعيد يقطين : قضايا الرواية العربية الجديدة ، مطابع الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ط1 ، 2012/1433
10. سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط3 ،بيروت ، 1997
11. ستانلي لين بول : فصة العرب في إسبانيا ، تر: علي الجارم بك ، كلمات عربية للترجمة و النشر ، القاهرة ، 2012.
12. قسطنطين زريق : نحن والتاريخ ، ، دار العلم للملايين، ط6 بيروت ، يناير 1985
13. رمسيس عوض : محاكم التفتيش ، دار الهلال، دط ، 2001
14. خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج3 ، دار العلم للملايين ، ط15، بيروت ، مايو 2002

15. خليفة بن الخياط: كتاب الطبقات ، رواية . أبي عُمران موسى بن زكريا التستري ، تح أكرم ضياء العمري ، ط1 ، مطبعة العانى ، بغداد ، 1967/1387م

- **مو اقع الانترنت:**

16. محمد سلام جميعا : تلويحات نقدية في رواية البيت الأندلسي لواسيني الأعرج ، وكالة عمون الاخبارية ، تاريخ الاضافة 2013/02/17 زيارة يوم 2017/01/13 على الساعة 21:30، الموقع الإلكتروني www.ammonnews.net